خاتمة

اللاهوت بين الشرق والغرب

« الله » فى اللاهوت الغربى المعاصر قريب من الفلسفة العقلية، فالله الواحد القائم على الأقانيم الثلاثة هو ضابط حركة الكون، وهو القانون الذى يقف خلف كل قوانين الطبيعة، لا تزال الشمس تشرق من مكانها، وتغرب فى مكانها، ولا زالت وجوه القمر تتعاقب، وحركات المدّ والجزْر، وقوانين نيوتن، وقواعد الهندسة.. وبدهىّ أن الله كعقل كونى جبار يقف خلف كل هذا.. كذلك فإن « الله » يضبط سلوك الإنسان بفكرة الثواب والعقاب، أو الفردوس والجحيم، التى ظهرت ـ أول ما ظهرت ـ فى مصر بارادوس المصرية **paradose** بارا = بيت، دوس = نعمة « بيت النعمة » باراعون = فرعون. بارا = بيت، أون أوعون = العالى أى البيت العالى رمزا لفرعون، جِى = رب أو وادى. هانوم: العذاب = جهنم].

« الله » مسئول عن قيامة الموتى لدى المصريين واللاهوت الغربى [مع الرجاء، الذى يحمل الشكّ، وهو موجود فى العبارة المسيحية المشهورة: « رقد على رجاء القيامة »] وهو المسئول عن البعث واليوم الآخر عند المسلمين، كما أنه المسئول عن « النرڤانا » أى الحلول فى الله، فى الأديان المتأثرة بفكر « بوذا » فى البوذية الهندية، والذرادشتية الفارسية، والكنفشيوسية الصينية، والطاويّة اليابانية.

الفلسفات اللاهوتية المتأثرة بالبوذية فى الشرق الأقصى، تكاد تكون

فلسفات تأمليّة عقلية بعيدة عن المغيبات والأساطير التى تكثر فى أديان السامية فى الشرق الأدنى، كما يغلب على أديان الشرق الأقصى الروح المهرجانية الاحتفالية الانبساطية، وهذه الروح متحققة فى عباداتهم، ولهذا قلنا (فى الفصل الحادى عشر) الذى بعنوان «التراث الدينى وتطوّر الجماعات»: إن أديان الشرق الأقصى، لم تكن فى يوم ما وسيلة تحول دون تطوّر الجماعات الإنسانية.

لا يزال «الله» فى اللاهوت والفلسفة الإسلامية، أقرب إلى التصوّر المادى الشخصانى، وهى نفسها صورة «الله» فى العهد القديم. حتى أن «روح الله ترفّ على وجه المياه» فى سفر التكوين، بل ينسب سفر التكوين إلى الله صفات بشرية: «استراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل. وبارك اليوم السابع وقدّسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقا» (تكوين – آخر الإصحاح الثانى).

بل إن آدم وحواء: «سمعا صوت الرب الإله ماشياً فى الجنّة» بل يُجرى سفر التكوين حوارا بين آدم وحواء والرب الإله فى الجنة،حيث نادى الرب الإله آدم وقال له: «أين أنت؟» فقال: «سمِعْتُ صوتَك فى الجنة فخشيتُ لأنىّ عريان فاختبأت» فقال: «من أعلمك أنّكَ عريان؟ هل أكَلْتَ من الشجرة التى أوصيتك ألا تأكل منها؟» فقال آدم: «المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلْتُ» فقال الربّ الإله للمرأة: «ما هذا الذى فَعلْت؟» فقالت المرأة: «الحيّة غرّتنى فأكلْتُ» (من سفر التكوين – الإصحاح الثالث).

وبالرغم مما جاء فى العهد القديم، فإن العقل الغربى الحديث (يهودى

ومسيحى) تجاوَزَهُ. أما اللاهوتَ الإسلامى، فتغلُبهُ الروح التجسيمية، ويقل فيه الجانب المنطقى، كذلك فإن اللاهوت الإسلامى المعاصر، لا يختلف فى فهمه للنصوص والمتون عن قُدامى المسلمين.

يقول الباقلانى: «إن الله قادرٌ على التحريك (تحريك الأشياء والبشر) فى حين أن الإنسان قادر على التحرّك فقط (؟!) وهذه القدرة الإلهية، التى تحرّك كل شئ، تعنى أن الأجسامَ والأجرام التى تتحرك مفتقرَةٌ إلى الله».. ثم ينتقل الباقلانى ـ بعد ذلك إلى الحديث عن الإنسان فيقول: «إن أقصى ما نستطيع أن نضيفه إلى قدرة الإنسان فيما يتعلق بظاهر الحركة، خاص باللحظة الثانية من لحظات الجسم، أما اللحظة الأولى، وهى فعل الإيجاد، فهى وقفٌ على الله ـ سبحانه ـ وابتداءً من اللحظة الثانية فقط نستطيع أن نتحدّث عن قدرة الانسان»؛ بل إن الباقلانى يرى أنه «حتى فى هذه اللحظة الثانية، فإن الإنسان ليس هو المحرّك الحقيقى، بل الفاعل هو «الله» أيضا (؟!) ومعنى ذلك أن أى جسم ـ فى جميع لحظاته ـ وكذا الإنسان مفتقِر فى وجوده إلى الله»(١)

قدّم ابن حزم أدّلة لاهوتية لإثبات وجود العالم، وكلها يشترك فى الاعتماد على فكرة «التناهى» لكنّ التناهى عند ابن حزم، ليس قائما على فكرة الجواهر والأعراض، بل إنه يقوم على أن الكون يَنْحَلُّ إلى ذرات متناهية.. وهى فكرة «تَدِقُ عن الفهم» كما يقول ابن حزم نفسه، أو هى فكرة تحكمية كما يقول معارضوه.

---

(١) الباقلانى (أبو بكر محمد) (توفى ٤٠٣ هجرية ١٠١٣ ميلادية، قاض ومتكلم أشعرى من كبار علماء الكلام. والنص هنا من كتابه «إعجاز القرآن».

ويرى الأشاعرة أن الله خَلَق المادّة، وأن المادّة لها صفات عارضة، ولابد أن يكون الله هو الذى خلق تلك الصفات.. وقال الأشاعرة بذلك يعارضون رأى المعتزلة (عقلاء الإسلام) الذين يمكن تلخيص آرائهم فى:

١- قولهم حيناً بأنه لا وجود لصفات المادة، وما نطلق عليه «صفات المادة» ليس إلا مظاهر للمادة نفسها (وهذا ما ذهب إليه «الأصمّ» و«النظام» من المعتزلة).

٢- وقول غالبية المعتزلة: «إن الصفات موجودة، ولكنها ليست من خلق الله، بل من خلق المادة نفسها، أى أنها نتاج الفاعلية الذاتية للمادة، وهذا ما أطلقوا عليه اسم «التّوالد الذاتى» حيث تصوّروا الصفات على أنها من فعل المادة (كما يقول واصل والزمخشرى).

وهذا الموقف الذى وقفه المعتزلة من المادة، ورغبتهم فى منحها قليلا من الحرية، يتفق مع موقفهم العام الذى وقفوه بالنسبة لعلاقة الله بالإنسان، ورغبتهم فى منح الإنسان المزيد من الحرية والإرادة، اعتمادا على ما ذهبوا إليه من أن الله «عادل» ولا يُنْسَبُ إليه الشرّ، فإنْ كان شرٌّ فهو من الإنسان، وجعلوا الإنسان «مسئولا عن أفعاله» لأن «إرادته حُرّة».

وربما يعترض معترض على المعتزلة فيقول: «إن المعتزلة نسبوا إرادة الفعل إلى الإنسان، ومعنى هذا أنهم انتقصوا من إرادة الله» ويردّ المعتزلة بأن: «نسبة الإرادة للإنسان تحقق مفهوم «العدل» حيث إنّ الإنسان مسئولٌ عن أفعاله ويُحاسَب عليها».. ويصوّب المعارضون رأى المعتزلة، ولكنهم يعترضون على فكرة أخرى فيقولون: «ما معنى نسبة القضاء والقدر إلى الله؟» فيرد المعتزلة بأنّ: «نسبة القضاء والقدر إلى الله، لا تعنى مسئوليته ـ

سبحانه ـ عن القضاء والقدر، فالمسئول هو الفاعل أى الإنسان أما الله ـ سبحانه ـ وهو سابقٌ على الزمان، فمسئوليته عن القضاء والقدر تتوقف عند مجرّد «سابق علمه با يقع» ولهذا وصف المعتزلة الله بالعدل والتوحيد، يقول الباجورى فى «جوهرة التوحيد»:

إرادةُ اللهِّ مع التَّعَلُّقِ ... فى أزلٍ قضاؤهُ فَحَقِّقِ
والقَدَرُ الإيجادُ للأمورِ ... على وفاق عِلْمِهِ المذكُورِ

كذلك، فإن المعتزلة قالوا «بواحدية» الله، حيث إن صفاته هى ذاته، ويتهم المعتزلة الأشاعرة بإثباتهم صفات متعددة خارجة عن الذات، وهذا يؤدى إلى شبهة التعدد.

☆☆☆☆☆

اللاهوت الإسلامى والمحْدَث

يرى الباقلانى أن المحدث هو الموجود من عدم، ومعنى ذلك أن الشئ المحدث لم يكنْ، ثم كان، وبعبارة أخرى فإن الشئ المحدث مسبوقٌ بالعدم. وهذا التعريف الذى يقدمه الباقلانى للمحدث يُقصدُ به نقد المعتزلة الذين يعارضون «الإحداث من العدم» ولا يتصوّرون إمكان الإحداث من العدم، ولهذا يقدّم المعتزلة صياغةً أخرى للإحداث وهى: «إحداث الشئ كان ثم كان».. أى أن الشئ «كان بصورة ما» قبل أن يتحقق «تحقّقا فعليّا فى دنيا الأعيان». ويطلق المعتزلة على حالة الشئ قبل أن يتحقق «حالة الثبوت أو الممكن» ومعنى ذلك أن الشئ قبل أن يوجد لم يكن عَدَماً، كما يذهب الأشاعرة، بل كان ممكناً، وحالة الممكن هى حالة «بين بين»، بين حالة الشئ متحققا فى الخارج، وبين كونه عدما، وكأنّ المعتزلة يقولون: «إن الخلق من العدم ليس متصَوّرا».. وهذه النظرة عند المعتزلة تذكرّنا بعالم المثل عند أفلاطون.(١)

وعلى كل حال، فإنّ لاهوت أديان السامية يُصرّ على «زرع اليقين» بين أتباع أديان السامية الثلاثة، ولا يترك لهم فرصة للشك.. أو إعادة القراءة وإعادة التفسير؛ وبينماتخّطى اليهود والمسيحيون «اليقين»، فإن المسلمين (بُسطاء وكهنوت) لا يزالون واقعين تحت أسر «اليقين».

(١) آراء المعتزلة نقلناها عن الزمخشرى (أبو القاسم محمود ١٠٧٥م - ١١٤٤) إمام عصره فى اللغة والبيان والتفسير وهو منسوب إلى «زمخشر» من أعمال فارس. وهو من كبار المعتزلة، والمنقول عنه فى «أساس البلاغة».

التطور العقلى الغربى و«المعقوليّة» الإلهية

اليهودية والمسيحية الغربية، عادتا إلى المعابد والكنائس منذ عصر النهضة، وتركتا البَشَرَ يفكرون ويتشككون ويخرجون من أسر «اليقين»، بل حدث إعادة قراءة، وإعادة تفسير لمتون العهد القديم.. ولكن ـ وللأسف ـ لا يزال الإسلام بنصوصه ومتونه، يُستخدم بطريقة لا تسمح بأية هوامش، فضلا عن أن «فهم النصوص لا يزال منصوصا عليه».. كذلك، لازالت ـ بين ظهرانينا جماعات إسلامية تنادى بالعودة للمجتمع «اللاهوتى القديم»، حيث لا حرّيات، ولا دساتير، وحجر هؤلاء على مجتمعاتهم بالإرهاب والقتل والعنف و«العقد الإلهى» بينما تقدمت المجتمعات الغربية، وتجاوزت «العقد الإلهى» إلى «العقد الاجتماعى» بل إن هذه المجتمعات تجاوزت الأوهام والأصنام والأحلام ابتداءً من القرن السادس عشر.

ظهر فرانسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦) وقال «إن الإنسان معرّض للوقوع فى أربعة أنواع من الأخطاء العقلية، أطلق عليها اسم «الأصنام» أو «الأوهام»، فهناك «أوهام القبيلة» أى أوهام الجنس البشرى، ومنها تحكم أمانينا فى اتجاه تفكيرنا، وبوجه خاص: توقعنا أن نجد فى الظواهر ما يزيد على ما فيها؛ وهناك أوهام الكهف وهى نقاط الضعف الفردية فى كل شخص وهى لا حصر لها ولا عدد. أما أوهام السوق فهى الأخطاء الناجمة عن ميل الذهن إلى الانبهار بالألفاظ، وهوخطأ يتفشى فى الفلسفة بوجه خاص. وأخيرا فإن أوهام المسرح هى تلك الأخطاء التى تنشأ عن المذاهب والمدارس الفكرية، والمثل المفضل لدى بيكون، فى هذا الصدد هو المذهب

الأرسطى.[1]

ثم ظهر توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩) الذى كان يقدّر الاتجاه التجريبى الرياضى. ثم ظهر «رينيه ديكارْت» (١٥٩٦-١٦٥٠) وهو مؤسس الفلسفة الحديثة، بكتابه الشهير «مقال فى المنهج».. والذى يذكر فيه الكوچيتو الديكارتى الشهير: «أنا أفكر إذن أنا موجود» والذى ينبنى عليه «الشكّ الديكارتى».

ووصل تلاميذ «ديكارت» مثل جولينكس (١٦٢٤-١٦٦٩) ومالبرانش (١٦٣٨-١٧١٥) إلى نظرية (من خلال فكر أستاذهم ديكارت) هى «مذهب المناسبة» **Occasionalism** إذ يرون «أنّ الله» يرتب الكون، بحيث تسير سلاسل الأحداث المادية والذهنية فى مساراتها الموازية على نحو يجعل الحادث فى إحدى السلسلتين يقع دائما فى المناسبة الصحيحة لوقوع حادث فى السلسلة الأخرى. وقد ابتدع جولينكس تشبيه الساعتين، لكى يضرب به مثلايوضح هذه النظرية: فإذا كانت لدينا ساعتان تدل كل منهما على الوقت بدقة كاملة، ففى وسعنا أن ننظر إلى إحداهما حينما يشير العقرب إلى اكتمال الساعة، بينما نسمع دقات الساعة الأخرى»[2]

☆☆☆☆☆

(١)، (٢) حكمة الغرب لبرتراند راسل، ترجمة وافية دقيقة للدكتور فؤاد زكريا... العدد ٣٦٥ من عالم المعرفة. يوليو ٢٠٠٩.

المعقولية الإلهية بين الله والطبيعة

ثم ظهر سبينوزا Spinoza (١٦٢٢ – ١٦٧٧) الذى رحل والداه إلى هولندا حيث وُلد هو فى « امستردام » ابنا لأسرة يهودية « رحل أجدادهم عن ديارهم فى البرتغال لكى يجدوا مكانا يمكنهم فيه أن يعبدوا الله على طريقتهم الخاصة . . وذلك لأن خروج المسلمين من أسبانيا والبرتغال، قد أتاح الفرصة لمحاكم التفتيش لكى تنشر حكما يسوده التعصّب الدينى، مما جعل الحياة ـ لغير المسيحيين ـ غير مريحة »(١)

وينتقد سبينوزا العهد القديم، ويقرر أن حرية التفكير والتعبير لا تنتمى لأى لاهوت دينى، إذ إن الحرية والإنسانية ترتبط بالتقدم الاجتماعى والعقلانى . . . ويعبّر سبينوزا عن نفس أفكار المعتزلة من المسلمين « فالجوهر » عند سبينوزا، كما هو عند المعتزلة، يجب ألا يكون متناهيا، إذ إنه لو كان محدودا لكان لتلك الحدود بعض التأثيرعليه، كما يدلل على أن هذا الجوهر هو العالم ككلّ وـ أيضا ـ الله ذاته، ومن هنا فإن الله والكون هو الشئ نفسه، وهذه هى نظرية « شمولية الآلهة » المشهورة عن سبينوزا .

لقد كان التوحيد بين الله والطبيعة أمرا مكروها، فى نظر المتمسكين بحرفية العقيدة فى جميع الأديان وجميع الآراء والمدارس، وإن سبينوزا يعبّر بوجهة نظره تلك عن آراء كل الفلاسفة الذين عرضناهم، وكلهم يؤمنون ـ مع سبينوزا ـ أن الله هو « معقولية » القواعد العلمية والرياضية والكونية

(١) برتراند رَسِلْ - حكمة الغرب .

وثباتها، فإذا قلنا: ما الذى يجعل قاعدة «التراكم» تنطبق فى كل وقت إذا ما وُجِدَت الظروف الطبيعية؟ «التراكم الكمّى يؤدّى إلى تناقض كيفى» تكون الإجابة أن المعقولية الإلهية هى التى تقف خلف قانون التراكم، كما تقف خلف كل القوانين الطبيعية. (لو سخّنّا الماء فوصلت حرارته إلى مائة، فإنه يتبخّر ولو برّدناه فوصل إلى ما دون الصفر فإنّه يصير ثلجاً، أى أن التراكم الكمى (فى درجة الحرارة صعودا أو هبوطاً) يؤدى إلى تناقض كيفى).

إن الأمم جميعا صارت تؤمن بضرورات الحرية والأمن والديموقراطية، وأن يتولى القيادة السياسية فيها حكام يلتزمون بالعقد الاجتماعى.. ولم يعد أحد يخضع للأساطير ولا للقوانين التى تصادر حرّيّات الناس.. ولا للثابت لأنه ـ فقط ـ قديم.

☆☆☆☆☆

الكائن الذى لا يتغيّر يُباد

إن خبرة قراءة تطور الكائنات تقول: إن الكائن الذى يثبت على حاله ولا يتغيرّ بما يتفق مع تغيّرات البيئة، محكوم عليه بأن يُباد، وهكذا أُبيد الإنسان الواقف على قدميه (إنسان بكين ساكن الكهوف) أباده نَمَط نياندرتال الأذكى منه، ثم ظهر الإنسان الحديث **Homo Sapiens**، فأباد نمط نياندرتال...

لا تزال مصر المعاصرة، بالرغم من تعاقب القيادات والسياسات تنّفذ «الخطّ الهمايونى»، وهذا الخط (أو القانون) الذى أصدره «همايون كبير» أحدُ الوزراء الأتراك فى زمن سلاطين آل عثمان، وهو يلزم أقباط مصر بارتفاع معين لأبراج الكنائس، وبحجمٍ معيّن للنواقيس، وارتفاع معيّن للأسوار وبمساحة معينة لساحات الكنائس وأحواشها، فضلا عن عدد الكنائس فى المدن والقرى.. ولو سُئِل أى مسئول عن هذا الخط فإنه ـ قطعاً ـ لا يوافق عليه، ولو سُئل أى مسلم فسوف يؤيد إلغاء القانون.. ومع هذا فلا يزال الخط الهمايونى التركى ساريا وكأنّه متن مقدّس.. إنه تقديس القديم لأنه قديم.. ذكر «شارلز ديكنز» فى وصفه الدقيق لرجلٍ عجوز «... والعجيب أنه لا يزال يحتفظ بأحذيته القديمة البالية والتى لن يستخدمها، بل يعتبرها جالبةً للحظ والصحة حتى أكسبها معنى القداسة..».

تماماً، كما اكتشفت القيادة المصرية سنة ١٩٥٧ (أى بعد خمس سنوات من الثورة) أن مصر كانت لا تزال تورّد للخزانة التركية جزية سنوية.

إن البشر ورجال الدين فى كل الأديان، قد أعادوا قراءة وتفسير المتون

الدينية بحيث تتفق مع فكرة «المعقولية الإلهية».. ولم يعد أحد ـ فى الكون كله ـ يقبل بفكرة الأساطير المرتبطة بالأديان.. والحكومات جميعا تشعر بمسئولياتها عن تقدم شعوبها وتنويرها.. إن مغازلة بعض الحكومات للتيارات الدينية، يؤدى إلى تدهور الأمم؛ إذ ثبت ـ عبرَ كلِّ العصور ـ أن الجماعات الدينية لا تصلح للقيادة السياسية للشعوب، كما ثبت أن الحكومات التى تسْتَقوى برافعى شعارات الدين حكومات هزيلة.

☆☆☆☆☆